ترجماتا «هكذا تكلم زرادشت».. صدم به «نيتشه» التيارات الفلسفية المتناقضة في أوروبا

31 | written by TEST1 أغسطس، 2025

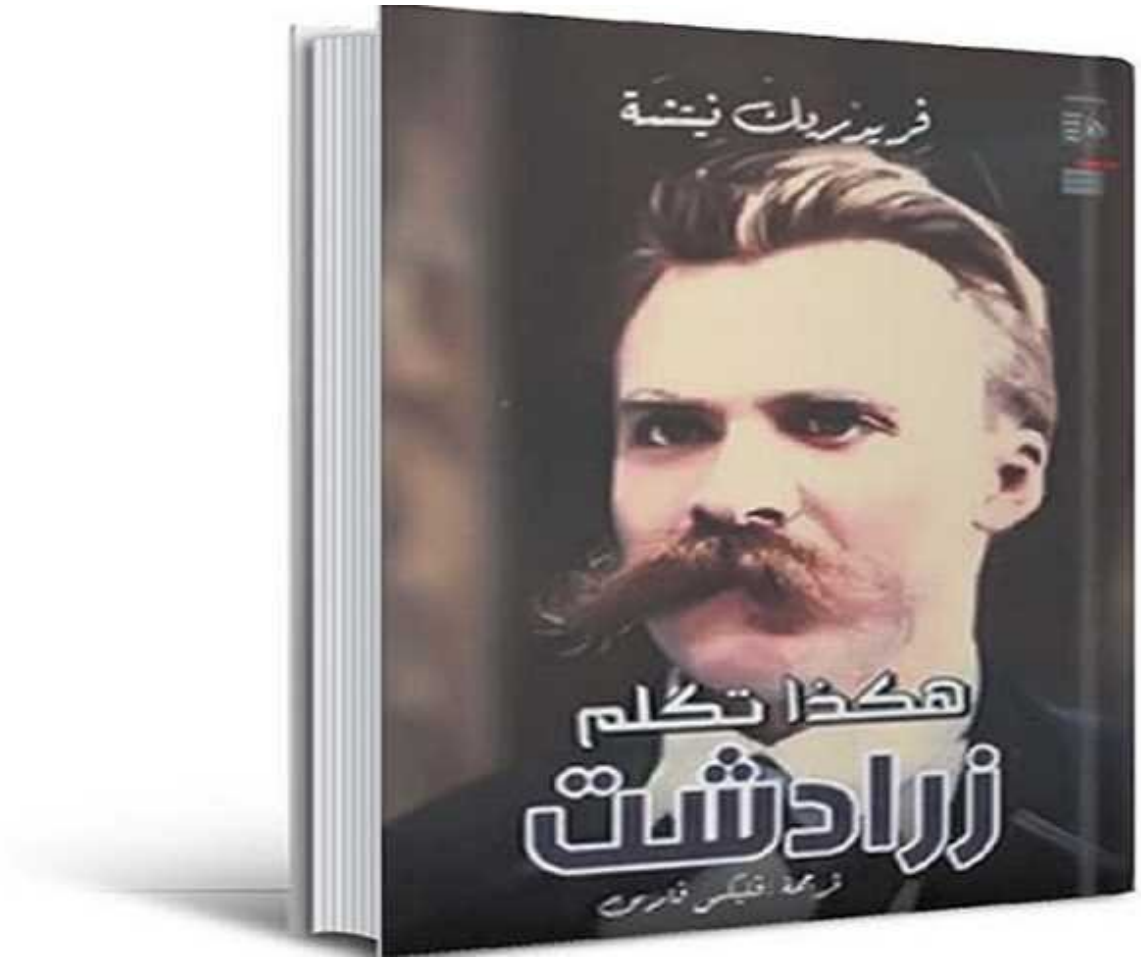

«هكذا تكلم زرادشت» كما وصفته الموسوعة الكبرى، إنه لا يعد أروع ما كتب نيتشه فحسب، بل أروع ما كتب فى اللغة الألمانية على الإطلاق. «زرادشت» صدم به نيتشه تيارات الفلسفات المتناقضة فى أوروبا. هكذا ترى زرادشت الداعى إلى تحطيم ألواح الوصايا جميعها، وإلى إنكار الشريعة الأدبية لإقامة شريعة جديدة ما وراء الخير والشر، يعود مفتشاً بين أنقاض الألواح التى حطمها على كلمات جديدة يجعلها دستوراً لإنسانيته المتفوقة.. يريد نيتشه خلق الإنسان المتفوق جبارًا كشمشون وشاعراً كدواد، وحكيماً كسليمان. إن محور الدائرة فى فلسفة نيتشه هو إيجاد إنسان يتفوق على الإنسانية، والتى تلمس مواطن القوة فى نفسه. فلسفة نيتشه شغلت كبار كتاب القرن التاسع عشر، ولايزال الفلاسفة يكتبون عنها إلى اليوم. من الكتب التى يجدى بالناشئة العربية درسها كما يدرسها طلاب الجامعات فى كل أوروبا.

نُشرالكتاب لأول مرة فى أربعة مجلدات بين عامى ١٨٨٣ و١٨٨٥، وأول ترجمة عربية لكتاب «هكذا تكلم زرادشت» كانت من قبل الشاعر والأديب والكاتب لبنانى فيليكس فارس (١٨٨٢-١٩٣٩)، وصدرت فى الإسكندرية عام ١٩٣٨، ولأهميته فى المكتبة المصرية والعربية أصدرت الهيئة العامة لقصور الثقافة، بإشراف الكاتب محمد ناصف، نائب رئيس الهيئة طبعة جديدة من الكتاب، ترجمة فليكس فارس.

يعد الكتاب العمل الفلسفى الأكثر انتشارًا وتأثيرًا لفريدريك نيتشه، ولا تزال أفكاره تحظى بتأثير واسع، أثر الكتاب فى مجالات عدة، مثل الحرب والسياسة والفن؛ إذ حمل بعض جنود الحرب العالمية الأولى نسخًا منه. كما ألهم أعمالًا فنية كالمقطوعة الموسيقية لريتشارد شتراوس وفيلم «أوديسة الفضاء» لستانلى كوبريك.

«هكذا تكلم زرادشت» كُتبت فى أواخر القرن التاسع عشر. فى بداية الكتاب يصف، كيف نزل النبى الفارسى القديم زرادشت من عزلة عشر سنوات فى الجبال، إنه مفعم بالحكمة والمحبة، ويريد أن يُعلّم البشرية عن الإنسان المتفوق. ويُعلن للعالم أن الإله قد مات وأن الإنسان الأعلى، التجسيد البشرى للألوهية، هو خليفته. بكل كثافة مشتعلة وتألق شعرى، يزعم نيتشه أن معنى الوجود لا يمكن العثور عليه فى التقوى الدينية أو الخضوع الوديع للسلطة، ولكن فى حياة قوية عاطفية وفوضوية وحرة.

يبدو أن الناس عمومًا لا يفهمون زرادشت، ولا يهتمون بالإنسان المتفوق. الاستثناء الوحيد هو سائر على حبل مشدود سقط ومات بعد ذلك بوقت قصير. فى نهاية يومه الأول بين الناس، حزن زرادشت على عجزه عن تحريك هذا «القطيع» من الناس فى السوق. قرر ألا يحاول هداية الجموع، بل أن يخاطب الأفراد الراغبين فى الانفصال عن القطيع.

يتألف الجزء الأكبر من الأجزاء الثلاثة الأولى من دروسٍ ومواعظٍ فردية ألقاها زرادشت. تُغطى هذه الدروس معظم المواضيع العامة لفلسفة نيتشه الناضجة، وإن كانت غالبًا ما تُقدم بأسلوبٍ رمزىّ وغامض. يُقدّر نيتشه النضال والمشقة، لأن الطريق نحو الإنسان الأعلى شاقٌ ويتطلب تضحياتٍ جسيمة. غالبًا ما يُصوَّر النضال نحو الإنسان الأعلى رمزيًا على أنه تسلق جبل، وغالبًا ما تُصوَّر روح الإنسان الأعلى الحرة والمرحة من خلال الضحك والرقص.

ينتقد زرادشت بشدة جميع أنواع الحركات الجماهيرية، و«الرعاع» عمومًا. ويقول تقوم المسيحية على كراهية الجسد والأرض، ومحاولة إنكارهما بالإيمان بالروح والحياة الآخرة. القومية والسياسات الجماهيرية أيضًا وسائل تحاول بها الأجساد المنهكة أو الضعيفة أو المريضة الهروب من ذاتها. يرى زرادشت أن من يتمتع بالقوة الكافية يُكافح. أما من يفتقر إليها فيستسلم ويلجأ إلى الدين أو القومية أو الديمقراطية أو أى وسيلة أخرى للهروب.

بلغت دعوة زرادشت ذروتها فى عقيدة العود الأبدى، التى تزعم أن كل شىء سيتكرر مرارًا وتكرارًا إلى الأبد. وحده الإنسان المتفوق هو من يتبنى هذه العقيدة، لأنه وحده من يملك قوة الإرادة لتحمل مسؤولية كل لحظة من حياته، ولا يتمنى إلا تكرارها. أما زرادشت، فيواجه صعوبة فى مواجهة العود الأبدى، إذ لا يحتمل فكرة أن سوء الظن بالرعاع سيتكرر إلى الأبد دون تحسن.

يُشير الكتاب إلى أن الإنسان قد خضع لقوة مجردة، غير مرئية. يكشف زرادشت للإنسان أن الحياة

تحكمها الصدفة، وأن تدهور الطبيعة البشرية ينبع من توقع أن شيئًا ما أو شخصًا ما سيوجهها فى الحياة.

يُعد كتاب «هكذا تكلم زرادشت» من أغرب الكتب فى التراث الفلسفى الغربى. إنه إنجيل ساخر: يروى أقوال وأفعال زرادشت بأسلوب يُذكرنا بالأناجيل، وهو زاخر بالإشارات الكتابية. زرادشت فى جوهره رجل يُشيد بالضحك، بل ويُمكنه أن يضحك حتى على نفسه. أعقب نيتشه كتابَه «هكذا تكلم زرادشت» بكتابَى «ما وراء الخير والشر» و«علم أصول الأخلاق»، وكلاهما كان يهدف إلى تقديم شرح أوضح للعديد من الأفكار الرئيسية فى كتاب «هكذا تكلم زرادشت».

ولد العبقرى الثائر فريدريش فيلهلم نيتشه فى ١٥ أكتوبر ١٨٤٤، فى بلدة روكن من أعمال ألمانيا، فهو فيلسوف وناقد ثقافى ألمانى نشر بكثافة فى سبعينيات وثمانينيات القرن التاسع عشر. بدأ حياته المهنية كعالم لغوى كلاسيكى، ثم تحول إلى الفلسفة فى وقت مبكر من حياته الأكاديمية فى عام ١٨٦٩، عندما كان عمره ٢٤ عامًا، أصبح نيتشه أصغر أستاذ يشغل كرسى علم اللغة الكلاسيكى فى جامعة بازل. عانى من مشاكل صحية طوال معظم حياته، واستقال من الجامعة فى عام ١٨٧٩، وفى العقد التالى أكمل الكثير من كتاباته الأساسية. فى عام ١٨٨٩، عندما كان عمره ٤٤ عامًا، عانى من انهيار وبعد ذلك فقدان كامل لقدراته العقلية، مع الشلل والخرف الوعائى. عاش السنوات الـ ١١ المتبقية من حياته تحت رعاية أسرته حتى وفاته ٢٥ أغسطس ١٩٠٠.